ليلة باهظة الثمن

اشرف غازي

كانت الساعة تشير إلي الواحدة صباحًا، وكنت عائدًا من عملي مجهدًا، مكدودًا، ورغم ذلك لم يغالبني أدني شك في أنني لا أود العودة إلي البيت، يساورني إحساس بوجوب الانطلاق بالعربة في شوارع طنطا التي تكاد تخلو من الناس، فاندفعت بالعربة في شارع تكرير البترول وانتابني من ذلك السكون المطبق والنسمات العليلة، وهبَّة الهواء التي لفحت وجهي انتعاشًا وسعادةً ..فتمهلت وأخذت أُدندن بصوت خافت وراقني الأمر حتى أنني أحسست أني كنت علي صواب .

لا أثر لعابر طريق، ولا أثر لحياة؛ اللَّهُم إلا بعض الأضواء المتناثرة التي لاحت من نوافذ متباعدة من تلك الأبنية العالية التي علي يميني وعلي يساري، امتد سور الشركة الطويل ومن وراءه الفراغ الفسيح يُغلِّفُه وشاح من الوحشة والظلمة ..

وعلي أضواء الطريق الباهتة .. ووسط سكونه المخيم بدا لي شبح امرأة تستحثُّ الخطي وكأنها مقاتل مقدم علي معركة مصيرية، وبغريزة الرجل ازددتُ تمهلًا ورحتُ أرقبها من بعيد، لم أستطع سوى تمييز أنها أنثى فقطْ من حدودها وطريقة سيرها، فكثيرًا ما كنت أحدِّد جمال المرأة من هذين الشيئين حدود جسدها وطريقة سيرها، ولم يخدعاني إلا في القليل النادر، على رغم خطواتها المسرعة إلّا أنها كانتْ شيئًا لطيفًا يستَحقُّ الرؤية والتأمُّل أو ربما أكثر من الرؤية.

اقتربت منها شيئًا فشيئًا حتى أنه لم يبقَ بيني وبينها سوى مسافة قصيرة لكنها لا تمنحني رؤيتها بدقة وتمحيص؛ لذا أضأتُ نور العربة العالي فانزعجتْ وغطتْ وجهها بيديها، أسرعتُ الخطى كي تخرج من نطاق الضوء غير عابئة بي ولا بما فعلت وأكملتْ سيرها بنفس الجدية والإصرار ولم تلتفت حولها؛ بينما أنا لم أحاول التوقف فلقد كانت المدة التي سطع فيها الضوء علي وجهها كافية لأن أستكشف معالمها، كما لم يكن بها ما يغريني ويرضي غاية الصياد داخلي بل كانت شاحبة الوجه غائرة العينين، نحيفة الجسد واستطعتُ أن أُميز أيضًا أنها قد تخطَّت عقدها الثالث بقليل.. ودفعني هُزَال الصيد والكسل إلى الانطلاق بعربتي مفضلًا النسمات الهادئة وجو الليل الساحر وأكملتُ دندنتي، ثم انطلقتُ مارًا بشركة تكرير البترول وصولًا إلى مَشفى أم القرى إلي أن وصلت إلي الكوبري العلوي المؤدي إلى سوق الجملة، ومِن ثم عدتُ أدراجي إلى حيث أتيت وأثناء عودتي وجدت نفس الشبح بخطواته العجلى ومشيته الجادة الصارمة وسط الهدوء والعُزلة.

أدهشتْني رؤية المرأة التي كانتْ لا تزال في سيرها وكأنها تسير بلا وجهة محددة، كنت أتوقع أن تختفي في إحدى البنايات الملاصقة للطريق لكنها لم تفعل، ولم يكن يبدو من طريقة سيرها أنها فتاة ليل تبتغي صيدًا أو تمارس نوعًا من الرياضة فلا ملابسها تؤهِّلها لذلك ولا الوقت يشفع لها .

ومرة أخري تولَّدتْ بداخلي نشوة الصيد التي كانت قد توارتْ منذ قليل، ثم أن حب الفضول والرغبة الجامحة في معرفة حقيقتها قد دفعاني دفعًا إليها، لذا اقتربتُ منها بلا خطة موضوعة أو تفكير مرتب أو حتى هدف واضح، وأوقفت العربة وقلت لها بلهجة حادة وأسلوب مقتضب:

- تفضلي.

راحت تتفرس المرأة في ملامحي التي بدت واضحة من ذلك الضوء الذي انعكس علي وجهي جراء فتح الباب، ورحتُ أعصر عقلي عصرًا كي يهبني خُطة مناسبة إذا ما تمنَّعت أو صدَّت، أو إذا وجَّهت لي كلمات توبيخ وتقريع .

لكن المرأة فاجأتني مفاجأة أَضاعت معها كل خططي وكل ما أعددته من ترتيب واستعداد، إذ أنها في ثواني معدودة كانت تستقر بجواري دون أن تتغير لها ملامح أو تتحرك لها شفاه، وساد الصمت بيننا إلا صوت أنفاسها التي بدت مسموعة واضحة كجوَّاد في سباق؛ سرتُ بالعربة وكلانا صامتًا شاردًا ببصره من خلال النافذة، لا ننظر لشيء بقدر ما يهرب أحدنا بل كلانا من النظر للآخر، لكني رحت أُحدث نفسي "لابد أن أتحدث ألست أنا الصياد وصاحب دعوتها إلي عربتي؟"، لكن أقرب الكلمات إلي لساني كانتْ كلمات الترحيب.. قلتها لكي أستعيد رباط جأشي وتعود إليَّ روحي المرحة المغازلة، فقلت:

- مساء الخير

ولم أجد بها ما يدفعني إلي الغزل الصريح المباغت، خبتْ بداخلي لذة الصياد وتغلَّبتْ عليّ رغبة المستطلع الذي يدفعه فضوله دفعًا، ولم أشأ أن يبدو غزلي مصطنعًا متكلفًا فوجدتني أقول لها:

- إلي أين؟

- أحضّر العشاء.

(عشاء!!)..كادت أن تنفلت مني صيحة دهشة، غالبتُ نفسي علي إمساكها، حيث لم يكن في مظهرها المحترم ولا في تلك الساعة المتأخرة من الليل ما يدفع سيدة مثلها لإحضار العشاء. ووجدتني أقول لها بلهجة غير المُصدق :

- عشاء الآن؟؟

- نعم الآن لم أجد شيئًا أقتات به.

- ألم تكوني علي علم مُسبق بخواء ثلاجتك؟

- لم أكن أدري أن البيت ليس به طعام إلا حين عودتي.

- وأين هذا البيت؟

- قريب من هنا.

قالتها وأردفت:

- ثم أنني لا ألتفت لهذه الأشياء غالباً إلا حين عودتي.

مخلوقة عجيبة! والأعجب ردّها!!

وفجأة التفتُّ لنفسي بعد أن تحوَّلتُ من صائد مغازل إلى محقِّق يسأل ويتساءل ويفرض فروضًا ربما كانت حقيقية وربما كانت المرأة هي المحقة، وإكمالًا لشلالات الأسئلة التي اندفعت بداخلي كالسيل وجدتني أقول لها:

- وإن كان الأمر كما تدَّعين فلمَ لم ترسلي غيرك ليأتِيكِ بطعام؟

فقالت وقد نفد صبرها:

- لأنه لا يوجد بالبيت غيري.

ووقع عليّ ردها وقعًا جعل السعادة تفيض بين جوانبي فيضًا، إذًا تسكن وحدها، أو علي أقل تقدير هي وحدها تلكَ الليلة ويمكنني العودة معها إلى حيث دارها، كل ما عليّ فعله الآن أن أبحث عن مكان آمن نبتاع منه العشاء، مكان لا تبصرنا فيه عيونًا تُحدِّق بفضول، سرتُ في تجاه أعرفه به حوانيت تعمل حتى وقت متأخر من الليل، لكنها بادرتني قائلة:

- اتجه يسارًا.

فقلت لها متعجبًا:

- لمَ..؟ سوف أصل بكِ إلي مكان أعرفه فيه حوانيت تعمل طوال الليل.
- لا ترهق نفسكَ

قالتها ثم تابعتْ:

- في نهاية هذا الشارع حانوت لي عنده حساب.

سرتُ في الاتجاه الذي أشارت إليه وفي نهاية الشارع كان بالفعل الحانوت الذي تقصده، فانتظرت في العربة وذهبت هي ثم عادت تحمل بين يديها عدة لفائف واستقرَّت مجدداً جواري، لكن هذه المرة لم تعد أنفاسها تتلاحق واختفتْ نظراتها المرتابة الحائرة، فسألتُها:

- هل نعود إلى البيت؟
- إن لم يكن لديك مانعًا هل يمكن أن تدور بالعربة قليلًا؟
- كما تشائين.

سرت في اتجاه شارع المحكمة القديمة الواسع الرحب الذي يكون خاليًا تمامًا في هذا الوقت المتأخر من الليل وقطعته حتى آخره وإذا بي أجدها شاردة، فقلت لها مستدرجاً وحتى أردها من شرودها:

- أتعيشين وحدك؟
- أجل.
- ألست متزوجة؟

- تزوجت ولم يحالفني الحظ وتزوجت أخرى وطُلقت بعد عام واحد وقد أتزوج ثالثة!!... وكأن الزواج عندي من الأحداث الطارئة التي ما أن تحل حتى ترحل.

- أليس لكِ أهل؟

- لي.. ولكنني أعمل في إحدى شركات الإنتاج السينمائي وأعود في وقت متأخر وربما أعود في مرات عديدة سَكِرة، فلم أشأ أن أُسبب لهم حرجًا أو أن يذكرهم الناس بسوء جراء عملي.

على ما يبدو أن الأمر قد بات سهلًا هيِّنًا للغاية، هي وحدها بالبيت وتعود أحيانًا ثملة وتعمل بمجال السينما وما تجلبه السينما من انحلال وتسيُّب، لم أر صيدًا هينًا كهذا من قبل، لكن لم تكن المشكلة تُحل حتى تُعقَّد ثانية فلم تحرك المرأة فيَّ أي جارحة ولم تُثرني وكنت أعول علي تلاصقنا وقربها مني فلم يزيدني ذلك إلا شفقة عليها إذا بدا ليّ عن قرب هزالها الواضح وشحوب وجهها الذي يشبه إلي حد بعيد شحوب الموتى، ومع ذلك وبدافع العناد والإصرار وإكمالًا للمغامرة التي بدأتها قلت لها فجأة:

- ألا نعود للبيت؟

فقالت بلهجة مستسلمة:

- كما تحب.

عُدت بالعربة أدراجي وما هي إلا دقائق معدودة التهمت فيها الطريق إلتهامًا كنت أمام بيتها فوجدتها تلملم اللفائف بين يديها وتستعد للنزول، فقلت لها :

- دعيني أحمل عنك.

- لا عليك فالأمر ليس صعبًا.
- هل تمانعين في صعودي معكَ ؟؟

فأطرقت برأسها وشردت وكأن كلماتي قد أفقدتها توازنها فأوشكت أن تتهاوى كملاكم تلقي ضربة قاضية..ثم لملمت شتاتها وقالت:

- أتُعني ما تقوله؟
- بكل تأكيد.
- لكنني أخشي أن يرانا البواب فيتحدث عنا.. فيظن السُكان أنني أُحضر رجالًا في البيت فيزداد الأمر سوءًا.. ولكن انتظر هنا وسأرى أنا إذا ما كان البواب نائمًا والطريق خالٍ ..حينها سأُضيء مصباح هاتفي وأغلقه مرتين.. أترى تلك النافذة؟؟ -وأشارت إلى نافذة في أعلى البناية- سأكون هناك في الأعلى.

فقلت لها:

- وإن لم أرَ ضوءًا؟
- إذن عليك أن تنصرف.

وقفت بجوار العربة أنظر عاليًا في انتظار ضوء يومض...أي أحمق أنا وأي مغامرة تلك التي جعلت نفسي بين رُحاها؟ ولم أُصر علي الزج بنفسي في أمر قد يكون برمته أكذوبة كبيرة...؟؟ فربما كانت المرأة هي الصياد لا أنا؟؟وربما كان بيتها كمينًا تستدرج فيه السُذج أمثالي...وربما كان معها زوجها بالأعلى ينتظر صعودي؟ فلا أعود إلا وقد خسرت كرامتي وأموالي...وربما يفتضح أمري وأصبح علكة في أفواه البعيد والقريب في طنطا يذكرون قصتي كنوع من التظرُّف والفكاهة.. ولماذا أصر علي البقاء والمرأة لم تُثر في جارحة ولم

تهيج فيّ فؤادًا؟ ولكن ما بال تفكيري لا سلطان له علي أفعالي!! لا شيء من كل هذا التفكير قد غير في الأمر شيء ..بل وقفت أنتظر وميض الضوء.

بعد وقت ليس بقصير أتاني الضوء ثم خبا.. ثم عاد يلمع من جديد، فأحسست باضطراب لذيذ ونشوة ظاهرة، وتوترت أعصابي، نافذة في السماء، ونور يومض، هي لا شك مغامرة تستحق أن تُخاض أيا كانت المرأة التي سأغامر من أجلها ..

لم أطق صبرًا وسارعت بالمرور من البوابة الحديدية، عدوت الدرج عدوًا حتى وصلت إلى الدور الأخير ورحت أنظر يمنة ويسرة، لكني لم أجد أحدًا، شعرت بحيرة فلم يكن من الممكن أن أطرق بابًا في هذا الوقت المتأخر من الليل وإلا افتضح أمري وخابت غايتي، وفي تلك الأثناء سمعت همسًا بالأعلى، نظرت فوجدتها تطل برأسها من فتحة صغيرة بالسطح، أمعنت النظر فوجدت سُلمًا صغيرًا يفضي بي إلي حيث تنظر، صعدت السلم فوجدت في نهايته حجرة صغيرة، أحسست بشيء من الخذلان والخيبة وأنا ارقب الحجرة المتواضعة بمظاهر الفقر والرثاثة البادية منها، وحاولت جهدي أن أستر خيبتي بضحكات مفتعلة، فرمقتني هي بعين فاحصة مستكشفة ثم قالت:

- آسفة فالمكان لا يليق بك.

فجاهدت نفسي كي أُنحي خذلاني جانبًا وحاولت أن يبدو مرحي أصيلًا غير مفتعلٍ وقلت لها:

- بل إنه مكان شاعري لطيف.

فضحكت ساخرة وهي تتمتم:

- بل أنت المجامل اللطيف.

استأذنتني ودلفت إلى مدخل صغير يفضي إلي مطبخ لا يتسع لفردين معًا على مدخله وُضعت ستارة سوداء بدت عليها الأوساخ ظاهرة بوضوح، وعلى الجانب الآخر دورة مياه، أما الحجرة نفسها فيتوسطها سرير صغير فراشه مبعثر بلا ترتيب ولا تنظيم، وضعت عليه وسادة بالية بدا واضحًا عليها علامات الرأس بقذارتها الدهنية.

كانت الحجرة تعجُّ بالفوضى والاضطراب، ملابس بأشكال مختلفة تناثرت هنا وهناك،وأعقاب سجائر وزجاجات ويسكي وبيرة فارغة، وفي وسط الحجرة تماماً دولاب خشبي صغير خرجت أحشاؤه، بجواره مشجب عليه قطع ملابس نسائية صغيرة، وتحت المقعد الخيزران الذي أجلس عليه كانت توجد سجادة ناحلة.

وسط كل هذه الفوضى والرثاثة وجدت أخيرًا الشيء الوحيد المُعتنَى به، منضدة صغيرة رُصَّت عليها بعض الكتب في عناية وترتيب، ولم أجد مبررًا لوجود الكتب في حجرة كتلك فلم أتمالك نفسي إلا وأنا أقول لها :

- يبدو لي أنك تقرئين كثيرًا.

فأتاني صوتها :

- هي عشقي وملاذي.. وأصدقائي الذين لا أملهم ولا يملوني.

عادت من المطبخ تحمل أطباقًا وضعت فيها ما أحضرته من طعام ثم مدت يدها إلي الدولاب الصغير فأخرجت زجاجة ويسكي ممتلئة حتى نصفها ونظرت إليّ متضاحكة وقالت:

- لعلك لا تمانع في مقاسمتي الزجاجة، إني في أمس الحاجة إليها كلها، لكني سأتنازل لك عن نصفها.

- أنا لا أشرب.
- ليس معقولًا.
- لم؟؟

مغازلًا..

- صياد مثلك يتبع النساء إلى خدورهن ولا يشرب .. خذ لك كأسًا.
- حقيقة لا أشرب.
- إذًا أصنع لك فنجانًا من القهوة.
- لا ترهقي نفسك.

وضعت صحاف الطعام وبجواره زجاجة الويسكي وانحنت علي قميص نوم أسود مصنوع من الفيزون وروب أحمر حريري كانا معًا علي الأرض بجوار السرير ثم قالت وهي تحاول أن تزيل عنها الحرج :

- سأبدل ملابسي وأعود إن لم يكن لديك مانع، فإني أريد أن أكون معك على راحتي.

فقلت لها أزيل عنها أي حرج:

- افعلي ما يحلو لكِ ولا تقيمي لوجودي وزنًا.

على ما يبدو أن منظر الغرفة المنفر وتلك القذارة والرثاثة قد نالا من نفسي فلم تعد بداخلي صفة المغامر القادم على صيد ثمين. بل تمنيت حينها أن أهرب...نعم أهرب وحسب، ثم إن المرأة منذ البداية لم تكن تثيرني وكل ما جعلني أفعل ما فعلت هو روح المغامرة ليس إلا .

بدلت ثيابها وعادت مسرعة والتهمت ما جهزته من طعام ثم راحت تفرغ

كأسًا تلو الأخرى وتلقي به في جوفها، وفعلت الخمر أفاعيلها فراحت تضحك وتقهقه وانسابت الكلمات من بين شفتيها كالسيل الجارف وفجأة تركت مقعدها ثم نزلت عند قدمي وأمسكت بيدي وقربتها من شفتيها وأحسست بأنفاسها الحارة علي يدي فسحبتها برفق كي لا أجرح إحساسها، بدأت أفكر في مهرب وهممت بالوقوف متعللًا بأنني قد تأخرت وعليّ الانصراف.

فوجدتها تنتفض وكأنما قد لسعها عقرب وهي تقول:

- تنصرف... لم؟

ثم راحت تبكي وتئن والخمر لا زالت تجعلها تترنح فلم أجد مفرًا من المكوث على مضض.. وباغتتني قائلة وهي تذرف الدموع:

- ألم تذق طعم الحب؟؟
- ذقته مرارًا.
- مرارًا!! أنت إذن لم تذقه بعد، الحب لا يُذاق إلا مرة واحدة... إما أن يرديك قتيلًا أو يبعثك حيًا.
- وماذا صنع بكِ أنتِ؟
- أرداني قتيلة كما ترى، فلم يدع لي إلا هذا الحطام الذي تراه.

وخشيت أن تدور الخمر أكثر مما تدور برأسها فقلت مواسيًا:

- أنتِ في خير حال.. هوني عليكِ.

ووجدتها تطلق من صدرها زفرة حارة وتنهيدة طويلة وقالت:

- سأروي لكَ قصتي ولكَ أن تحكم..

وأحسست أن طريق الفرار يتباعد، وإحساسي بالشفقة نحوها يجبرني علي البقاء والاستماع لها حتى لا أقسو عليها فأحطم البقية الباقية منها،

فرمقتني بنظرة طويلة وراحت تحكي...

- في شارع المأمون كانت تقطن أسرتينا، وكانت تربط والدته بوالدتي صداقة قديمة وود قائم، كنت حينذاك في السادسة عشر من عمري، كنت أراه دائمًا أمامي وأصوره مثل الفرسان، أو بالأحرى فارس سيحملني على جواد أبيض ونذهب معًا إلى مكان لا يعلمه غيرنا، كنت أعشقه عشقًا لو وُزِّع على العالم لكفاه ولكنه لم يكن ينتبه حتى لمجرد وجودي، وذات يوم زفت لي والدتي بشرى سعيدة جعلتني أترنح نشوة وسعادة، حيث قالت أننا علي وشك الخطبة وأنها قد تحدثت مع جارتنا علي ذلك ولم يبقَ سوى ترتيبات الخطوبة، لكن سرعان ما تبددت فرحتي حينما أعلن هو عن سفره المفاجئ لأوروبا لاستكمال تعليمه وانقطعت أخباره من وقتها؛ تركني ميتة وإن بدوت للناس على قيد الحياة.

وحينما نطقت جملتها الأخيرة انتفضت في مجلسي وعاد بي عقلي إلى الوراء... إلى حيث سنوات بعيدة وتذكرت وجه الفتاة البريء وقسمات وجهها الرائعة، وملامحها الهادئة. إني لأتذكر دارنا ودارهم ملتصقين في شارع المأمون بل أتذكر كل شيء، وكأنه حدث بالأمس وهنا أمسكت يدي لتقبلها من جديد فانتفضت واقفًا وسحبت يدي برفق وقلت لها مودعًا:

- الوقت تأخر والفجر أوشك على البزوغ.. سأعود مرة أخرى.

فوجدتها تقول ساخرة والدموع تسيل من عينيها....

- تعود!!! ألم تقل هذا منذ ما يقرب من عشرين عامًا... هل بقي في العمر عشرين عاماً أخرى؟؟ لا عليك.. الحب لا يُنتزع بالقوة، بل يُمنح عن طيب خاطر.

وانصرفت عنها شبه ميت، ما أقساها من ليلة باهظة الثمن!!

تمت بحمد الله.